

تفسير ابن كثير

يقول تعالى : بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون أي قد جاءهم الحق اليقين وهم يشكون فيه ويمترون ولا يصدقون به ثم قال D متوعدا لهم ومهددا : { فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين } قال سليمان بن مهران الأعمش عن أبي الضحى مسلم بن صبيح عن مسروق قال : دخلنا المسجد يعني مسجد الكوفة عند أبواب كندة فإذا رجل يقص على أصحابه { يوم تأتي السماء بدخان مبين } تدرون ما ذلك الدخان ؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام قال : فأتينا ابن مسعود B فذكرنا له ذلك وكان مضطجعا ففزع فقعد وقال : إن D قال لنبيكم صلى الله عليه وسلم : { قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين } إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم D أعلم سأحدثكم عن ذلك إن قریشا لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان وفي رواية فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد .

قال D تعالى : { فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم } فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل يا رسول الله استسقى الله لمضر فإنها قد هلكت فاستسقى صلى الله عليه وسلم لهم فسقوا فنزلت { إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون } قال ابن مسعود B : فيكشف عنهم العذاب يوم القيامة فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله D : { يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون } قال يعني يوم بدر قال ابن مسعود B : فقد مضى خمسة : الدخان والروم والقمر والبطشة والزام وهذا الحديث مخرج في الصحيحين ورواه الإمام أحمد في مسنده وهو عند الترمذي والنسائي في تفسيريهما وعند ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق متعددة عن الأعمش به وقد وافق ابن مسعود B على تفسير الآية بهذا وأن الدخان مضى : جماعة من السلف كمجاهد وأبي العالية وإبراهيم النخعي والضحاك وعطية العوفي وهو اختيار ابن جرير .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا جعفر بن مسافر حدثنا يحيى بن حسان حدثنا ابن لهيعة حدثنا عبد الرحمن الأعرج في قوله D : { يوم تأتي السماء بدخان مبين } قال : كان يوم فتح مكة وهذا القول غريب جدا بل منكر وقال آخرون لم يمض الدخان بعد بل هو من أمارات الساعة كما تقدم من حديث أبي سريحة حذيفة بن أسيد الغفاري B قال : أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من عرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال صلى الله عليه وسلم : [لا

تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها والدخان والدابة وخروج يأجوج ومأجوج وخروج عيسى بن مريم والدجال وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس - أو تحشر الناس - تبیت معهم حيث باتوا وتقبل معهم حيث قالوا] تفرد بإخراجه مسلم في صحيحه وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابن صياد : [إني خبأت لك خبأ] قال : هو الدخ قال صلى الله عليه وسلم [اخسأ فلن تعدو قدرك] قال : وخبأ له رسول الله صلى الله عليه وسلم : { فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين } وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب وابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان وهم يقرطمون العبارة ولهذا قال هو الدخ يعني الدخان فعندها عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم مادته وأنها شيطانية فقال صلى الله عليه وسلم : [اخسأ فلن تعدو قدرك] .

ثم قال ابن جرير : وحدثني عصام بن رواد بن الجراح حدثنا أبي حدثنا سفيان بن أبي سعيد الثوري حدثنا منصور بن المعتمر عن ربعي بن حراش قال : سمعت حذيفة بن اليمان B يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إن أول الآيات الدجال ونزول عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تقبل معهم إذا قالوا والدخان - قال حذيفة B يا رسول الله وما الدخان ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية { فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم } - يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة أما المؤمن فيصيبه منه كهينة الزكمة وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره] قال ابن جرير : لو صح هذا الحديث لكان فاصلا وإنما لم أشهد له بالصحة لأن محمد بن خلف العسقلاني حدثني أنه سأل روادا عن هذا الحديث هل سمعه من سفيان ؟ فقال له : لا قال فقلت : أقرأته عليه ؟ قال : لا قال فقلت : أقرء عليه وأنت حاضر فأقر به ؟ فقال : لا فقلت له : فمن أين جئت به ؟ فقال : جاءني به قوم فعرضوه علي وقالوا لي اسمعه منا فقرءوه علي ثم ذهبوا به فحدثوا به عني أو كما قال وقد أجاد ابن جرير في هذا الحديث ههنا فإنه موضوع بهذا السند وقد أكثر ابن جرير من سياقه في أماكن من هذا التفسير وفيه منكرات كثيرة جدا ولا سيما في أول سورة بني إسرائيل في ذكر المسجد الأقصى والله أعلم .

وقال ابن جرير أيضا : حدثنا محمد بن عوف حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش حدثني أبي حدثني ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري B قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إن ربكم أنذركم ثلاثا : الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه والثانية الدابة والثالثة الدجال] ورواه الطبراني عن هاشم بن يزيد عن محمد بن إسماعيل بن عياش به وهذا إسناد جيد وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو

زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنا خليل عن الحسن عن أبي سعيد الخدري B أن رسول
A قال : [يهيج الدخان بالناس فأما المؤمن فيأخذه الزكمة وأما الكافر فينفخه حتى
يخرج من كل مسمع منه] ورواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبي سعيد الخدري
، مثله الحسن عن عوف بن سعيد وروى موقوفا B

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عبد الله بن صالح بن مسلم حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن
الحارث عن علي B قال : لم تمض آية الدخان بعد يأخذ المؤمن كهيئة الزكام وتنفخ الكافر
حتى ينفذ وروى ابن جرير من حديث الوليد بن جميع عن عبد الملك بن المغيرة عن عبد الرحمن
بن البيلماني عن ابن عمر Bهما قال : يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كهيئة الزكام ويدخل
مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيد أي المشوي على الرصف ثم قال ابن جرير :
حدثني يعقوب حدثنا ابن علية عن ابن جريج عن عبد الله بن أبي مليكة قال : غدوت على ابن
عباس Bهما ذات يوم فقال : ما نمت الليلة حتى أصبحت قلت : لم ؟ قال : قالوا طلع الكوكب
ذو الذنب فخشيت أن يكون الدخان قد طرق فما نمت حتى أصبحت وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن
أبيه عن ابن أبي عمر عن سفيان عن عبد الله بن أبي يزيد عن عبد الله بن أبي مليكة عن ابن
عباس Bهما فذكره وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس Bهما حبر الأمة وترجمان القرآن وهكذا قول
من وافقه من الصحابة والتابعين Bهم أجمعين مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان
وغيرهما التي أوردوها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتطرة مع
أنه ظاهر القرآن قال الله تبارك وتعالى : { فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين } أي بين
واضح يراه كل أحد وعلى ما فسر به ابن مسعود B إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة
الجوع والجهد وهكذا قوله تعالى : { يغشى الناس } أي يتغشاهم ويعمهم ولو كان أمرا
خياليا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه { يغشى الناس } .
وقوله تعالى : { هذا عذاب أليم } أي يقال لهم ذلك تقريرا وتوبيخا كقوله D : { يوم
يدعون إلى نار جهنم دعا * هذه النار التي كنتم بها تكذبون } أو يقول بعضهم لبعض ذلك
وقوله سبحانه وتعالى : { ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون } أي يقول الكافرون إذا
عابنوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم كقوله جلت عظمتة { ولو ترى إذ وقفوا على
النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين } وكذا قوله جل وعلا :
{ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك
ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال } وهكذا قال جل وعلا ههنا : {
أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون } يقول : كيف
لهم بالتذكر وقد أرسلنا إليهم رسولا بين الرسالة والندارة ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه
بل كذبوه وقالوا معلم مجنون وهذا كقوله جلت عظمتة : { يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له

الذكرى { الآية وكقوله D : { ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب * وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد { إلى آخر السورة .
وقوله تعالى : { إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون { يحتمل معنيين : (أحدهما) أنه يقول تعالى ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب كقوله تعالى : { ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون { وكقوله جلت عظمتة : { ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون { و (الثاني) أن يكون المراد إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم وأنتم مستمررون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم كقوله تعالى : { إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين { ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم بل كان قد انعقد سببه عليهم ولا يلزم أيضا أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه قال ابن تعالى إخبارا عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه حين قالوا : { لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين * قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها { وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم وقال قتادة : إنكم عائدون إلى عذاب الله .

وقوله D : { يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون { فسر ذلك ابن مسعود B ه يوم بدر وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود B ه على تفسيره الدخان بما تقدم وروي أيضا عن ابن عباس B هما من رواية العوفي عنه وعن أبي بن كعب B ه وهو محتمل والظاهر أن ذلك يوم القيامة وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضا قال ابن جرير : حدثني ابن علي ح حدثنا خالد الحذاء عن عكرمة قال : قال ابن عباس B هما قال ابن مسعود B ه : البطشة الكبرى يوم بدر وأنا أقول هي يوم القيامة وهذا إسناد صحيح عنه وبه يقول الحسن البصري وعكرمة في أصح الروايتين عنه والله أعلم